دروس في الأخلاق السياسية

الدكتور محمد شقير

الظلم

إن الظلم من أخطر الأمور التي قد يقدِم عليها العبد، وقد حذّر منه القرآن الكريم مراراً في آياته، وقد قال تعالى عن الظالمين انه لا يهديهم ولا يحبهم وانهم لا يفلحون (إنه لا يفلح الظالمون)(1).

وقد وصف في الروايات بأنه أم الرذائل، وانه في الدنيا بوار وفي الآخرة دمار وانه يخرب القلوب وأكبر المعاصي، يقول الامام علي (ع): «إياكم والظلم فإنه يخرب قلوبكم»(2).

إن الشعار الذي يرفعه الدين على مستوى التعامل مع الآخرين والإمرة والإدارة والقيادة هي مواجهة الظلم والقيام بالعدل الذي هو شعار بقية الله في الأرضين الإمام المهدي (عج).

وقد تقول أيها العزيز إن الكلام عن الظلم لا يرتبط بي وبالمؤمنين وعملهم لأن الظلم إنما هو لدى من لا يؤمن بالله العزيز، أما من يؤمن بالله تعالى فلا يظلم. والجواب: إياك إياك أن تغتر بإيمانك وأن تتصور نفسك أنها أصبحت بعيدة عن ارتكاب الظلم بحق العباد، فهذا من تلبيسات إبليس الذي يريد إيهامك أنك لا ترتكب الظلم حتى يوقعك في الشرك والفساد، إن الظلم كما قد يرتكبه غير المؤمن قد يرتكبه المؤمن بل إن ظلم المؤمن لعباد الله تعالى قد يكون أشنع وأصعب من بعض الجهات.

والدليل على ما ذكرنا هو أن تلك الآيات والروايات التي حذّرت من الظلم توجهت إلى المؤمن وغير المؤمن، بل إن بعضها لخطورة الأمر كان يتوجه من الأئمة المعصومين (ع) إلى أولادهم الذين هم أئمة بعد الأئمة حيث يقول الامام الباقر (ع): «لما حضر علي بن الحسين الوفاة ضمني إلى صدره ثم قال: يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي عليه السلام حين حضرته الوفاة وبما ذكر أن أباه أوصاه به، قال: يا بني إياك من ظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاّ الله»(3).

فانظر أيها الحبيب كيف يوصي إمام معصوم إماماً معصوماً، ليكون ذلك درساً لي ولك، وعبرة لنا جميعاً حتى نحذر هذا المرض الخبيث.

كما أن الظلم ليس مرتبة واحدة وإنما له مراتب عديدة وكله ظلم وكل نوع منه تترتّب عليه آثاره، فهناك الظلم الذي لا يُغفر والظلم الذي يُغفر والظلم الذي لا يُترك، يقول الامام علي (ع): «ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظُلمٌ لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب، فأما الظلم الذي لا يُغفر فالشرك بالله.. وأما الظلم الذي يُغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يُترك، فظلم العباد بعضهم بعضاً»(4).

إن المؤمن قد لا يُبتلى بنوع من الظلم لكن قد يُبتلى بأنواع أخرى منه وخصوصاً إذا كان ممن تصدى للإدارة والقيادة وكانت تغلبه شهواته وتكسره رغباته فإنه والحال هذه عليه أن يكون حذراً

وحريصاً على اصلاح نفسه وغلبة هواه حتى لا يخرب آخرته ويفسد قلبه.

الإمام زين العابدين (ع) وقضية الظلم:

يشير الإمام زين العابدين (ع) في صحيفته السجادية إلى الظلم فيقول: «اللهم وأيما عبدٍ من عبيدك أدركه مني درك أو مسّه من ناحيتي أذىً أو لحقه بي أو بسببي ظلم ففتّه بحقه أو سبقته بمظلمة، فصلّ على محمد وآله وأرضه عني من وجدك، وآته حقه من عندك، ثم قِني ما يوجب له حكمك وخلصني مما يحكم به عدلك، فإن قوتي لا تستقل بنقمتك وإن طاقتي لا تنهض بسخطك»(5).

أجل، إن نتيجة الظلم لا يمكن أن يتحملها أحد منّا وهي تحتاج إلى رحمة الله تعالى، فجدير بمن كان في موقع من مواقع الإدارة والقيادة والمسؤولية أن يكون حريصاً على عدم الظلم وأن يطلب العون والتوفيق والتسديد منه تعالى.

النهج السياسي لعلي (ع):

إن من يعود إلى تاريخ علي (ع) يرى أن نهجه السياسي كان متميزاً ومن الصعب أن تجد له مثيلاً إلاّ لدى رسول الله (ص)، إن علياً لم يكن يداهن لأنه لم يكن له هدف شخصي ومصلحة شخصية من إمرته بل كان هدفه أن يرفع الظلم عن المظلوم وأن يأخذ الحق من الظالم وأن يعمل بما أمر به الله وبما يرضاه، يقول عليه السلام: «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً وأُجرّ في الأغلال مصفداً أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حلولها»(6).

إن بعض الأشخاص عندما يصلون إلى بعض مواقع الإدارة والسلطة قد يصبح هذا الأمر مصدر تعزز وفخر بالنسبة إليهم، بل قد يصل إلى حيث يرى في وجوده في هذا الموقع فضلاً على عباد الله، ومنّة على من يعمل لأجلهم، بل وأكثر من ذلك ربما لا يرى هذا الموقع إلاّ من خلال نفسه ولا يرى نفسه إلاّ من موقعه، وبالتالي فإن إمرته حق له لا انها أمانة بيده، وهي طعمة يطعمها لمن يشاء ويفعل بها ما هو أقرب إلى هواه حتى لو ظلم عباداً لله.

يقول الإمام علي (ع): «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته»(7).

إن الولاية والإمرة والقيادة و... كل ذلك لا يعني شيئاً بالنسبة إلى علي (ع) إلاّ أن يدفع باطلاً ويقيم حقاً، فكان مسلكه (ع) غاية في الشفافية والابتعاد عن الذاتية. تأتيه امرأة تشكو إليه أحد ولاته انه ارتكب ظلماً فيرسل إليها معها فيعزله من عمله بعد زمان تذهب هذه المرأة إلى معاوية لتشكو إليه والٍ فلا يجيبها إلاّ عندما تحدث بعدل علي (ع) إذ تقول متأوهة بعد أن يصدها ويرد طلبها:

صلى الإله على روح تضمنها قبر
فأصبح فيه العدل مدفوناً

قد كان للحق لا يبغي به بدلاً
فأصبح بالعدل والايمان مقروناً
يلتفت معاوية ويقول لها: أمة الله من تقصدين؟
تجيبه: أقصد علياً أمير المؤمنين عليه السلام.
أتحبين علياً؟
نعم، أحب علياً.
ولماذا تحبينه؟
وتحكي له عدل علي (ع) ورفضه للظلم، فيحركه كلامها ليجيبها؛ رحم الله علياً فكما عدل في حياته فلقد عدل ايضاً في مماته عليه السلام.
إن علياً عليه السلام يعطينا درساً أن من يتصدى لشؤون الناس وسياستهم عليه أن يجعل العدل نصب عينيه وألاّ يجامل فيه ولا يداهن حتى لو كان على حساب مصلحة له؛ إن من يدرك أنه لن يصل إلى مأموله إلاّ إذا ظلم أو لن يحفظ مكانته إلاّ إذا ظلم فهل يقدم على ظلم ما أم أنه يردع نفسه ويثنيها عن غيّها؟
إن كثيرين يسقطون هنا لأنه الجاه والمقام وآمال للنفس أخرى، ولا يستقيم ها هنا إلاّ من عصم نفسه وهذّبها وزكّاها وأدّبها.
إن نهج علي (ع) قد أصبح واضحاً للعيان وماثلاً بالدليل والبرهان، وسبل أخرى ماثلة أيضاً، وبين السبيلين يختار امرؤٌ وما انطوت عليه نفسه.

الظلم والحكم:
إن الظالم ليس مؤهلاً للحكم وسياسة العباد، ومن لا يرى من نفسه القدرة على مواجهة هوى نفسه فلا يجعلها في تلك المواقع لأن الأثر خطير خطير، إن نبي الله ابراهيم (ع) عندما سأله ربه الإمامة لذريته أجابه الله تعالى: (لا ينال عهدي الظالمين)(8) أي أن الإمامة هي عهد الله تعالى وهذا العهد لا ينال من يرتكب الظلم؛ وعليه يمكن القول ان من يريد أن يمسك ولو بفرع صغير من فروع تلك الإمامة يجب أن يكون مؤهلاً له بالتقوى وأن يكون دؤوباً في مقاومة الهوى وإلاّ أفضل له أن يتنحّى، يكتب الامام الصادق (ع) إلى النجاشي والي الأهواز:
«.. زعمت أنك بليت بولاية الأهواز فسرّني ذلك وساءني.. فأما سروري بولايتك فقلت عسى أن يغيث الله بك ملهوفاً خائفاً من أولياء آل محمد.. وأما الذي ساءني من ذلك فإني أدنى ما أخاف عليك أن تعثر بولي لنا فلا تشم رائحة حظيرة القدس»(9).

(1) سورة الأنعام:21.
(2) ميزان الحكمة، مج5، ص597.
(3) م.ن، ص604.
(4) م.ن، 601.

(5) ص194.

(6) نهج البلاغة، خ224.

(7) م.ن.

(8) سورة البقرة: 124.

(9) الأنصاري، المكاسب، مج1، ص178.